الصلة التفصيلية بين قيم العلاقة الزوجية
من خلال قوله تعالى:
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تراب ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾

الأستاذ محمد الشامخ

مقدمة:

إن المتأمل في الوجود، سيلفي أن حياتنا لم تكن صدفة، بل خلقنا الله تعالى وأتقن العلاقات في وجودنا بالفطرة الصافية، والتشريع الرباني المتكامل، فكان البعد الروحي في وجودنا كنه السعادة في حياتنا، ولا يمكن أن نتذوق طعمها إلا بإحقاق العبودية لله تعالى، فكان هذا البعد نورا نحيا به ونخطو في الحياة، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيتًا فَأَحْيِينَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يعْمَلُونَ﴾ الأنعام: 122، ويبقى البعد النفسي والجسدي والمجتمعي وغيره؛ أبعادا ثانوية تندرج تحت مفهوم العبادة الشامل، إلا أنه لا يمكن للمرء أن يسعد إلا بتكامل وتفاعل هذه الأبعاد كلها. وفي هذا المقام تأتي العلاقة الزوجية لترسل خيوط ظلالها على كل تلك الأبعاد، وتفرض نفسها عليها جميعا، وإلا كانت حياة المرء خداج، لقول الرسول ﷺ: «من رزقه الله امرأة صالحة فقد أعانه على شطر دينه، فليتق الله في الشطر الثاني»[1]، وقال أيضا: «الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة»[2] فهذه أحاديث تبين مدى التأثير الإيجابي للعاطفة الزوجية على البعد النفسي والجسدي ثم المجتمعي، وصلاح المجتمع من صلاح الأسرة، ولا ينكر عاقل أن بذرة الأسرة هي ذلكم الزواج الإسلامي المبارك بين الزّوجين، الموسوم بقيمة المودة والرحمة.

أهمية البحث، وإشكاليته، وخطته:

ونظرا لأن قيمة المودة والرحمة؛ صفتان مشتقتان من أسماء الله تعالى؛ وأنهما مقترنتان ببعضهما دون غيرهما تعبيرا عن قيم العلاقة الزوجية، وأخذا بعين الاعتبار؛ مدى دورهما في إحقاق الاستقرار الأسري، ومدى صلاحيتهما للدراسة في مختلف المجالات، وعلى مر الأزمنة وفي مختلف الأمكنة؛ تجلت لي أهمية هذا البحث؛ فجاء ليجيب عن إشكالية مدى الصلة التفصيلية بين قيمة السكينة والمودة والرحمة في العلاقة الزوجية، انطلاقا من قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تراب ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ الروم: 20، وقد تمخض عن إشكالية هذا البحث، أسئلة كثيرة، من أهمها: هل السكن إلى الزوج سبب لإحقاق القيمتين، أم أن القيمتين سببان لإحقاق السكن؟ وهل القيمتان منفصلتان عن بعضهما بعضا؟ أم هما متكاملتان باعتبار الازدواجية؟ أم أن إحداهما تحل محل الأخرى عند انعدامها؟ وهل كل من القيمتين يتم إحقاقها بذاتها، أم لا بد من قيم غيرها؟ وهل المودة من المرأة للرجل والرحمة منه لها؟ أو أن كل واحد من الزوجين يود الآخر ويرحمه؟ أي؛ باعتبار الجمع لا التوزيع. وللإجابة عن هذه التساؤلات؛ جاءت خطة هذا المقال في ثلاثة مباحث وخاتمة على الشكل التالي:

المبحث الأول: دراسة في مفهوم المودة والرحمة وبعض الألفاظ ذات الصلة بهما: (المحبة والعشق للمودة، والرأفة والشفقة للرحمة)

- ✓ **المبحث الثاني**: أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ الروم: 20.
- ✓ **المبحث الثالث**: الصلة التفصيلية بين قيمة (السكينة والمودة والرحمة)
- ✓ **خاتمة**؛
- ✓ **الهوامش**.

المبحث الأول: دراسة في مفهوم المودة والرحمة وبعض الألفاظ ذات الصلة بهما: (المحبة والعشق للمودة، والرأفة والشفقة للرحمة)

المطلب الأول: مفهوم المودة والألفاظ ذات الصلة: (المحبة والعشق نموذجا):

1- تعريف المودة لغة واصطلاحا:

إن المودة في اللغة العربية جاءت من الوُدِّ والوداد، قال ابن فارس: "الواو والدال كلمة تدل على المحبة. ودِدته: أحببته. وودِدت أن ذاك كان، إذا تمنيته"3. واصطلاحا: الود أو الوداد، هو "صفو المحبة وخالصها ولبها"4 والودود هو اسم من أسماء الله الحسنى،5 قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾ البروج: 14، فلذلك ورد في معظم كتب التفسير أن المودة بمعنى المحبة، كما في قول الإمام السدي وابن كثير6 وغيرهم، وروي عن ابن عباس: أن المودة محبة الرجل امرأته7، وروي عن ابن عباس أيضا ومجاهد أن المودة: الجماع، وهذا ما أيده ابن عادل الحنبلي كون المودة تحصل بالمجامعة8 وبالتالي؛ يراد بالمودة في السياق القرآني: المحبة. وذهب آخرون كالصوفية إلى أن المودة بخلاف المحبة، فجعلوها أعلى قدرا من الحب؛ لأن الحب عندهم درجات، كما ذكر ابن القيم الجوزية[9]، وما يدل على علو قدر المودة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ مريم: 96، أي؛ يرقيهم بأعمالهم الصالحة إلى أن يصلوا درجة الود في قلوب الناس، والتي هي أعلى مراتب الحب. لذلك كان الود في القرآن الكريم بين الزوجين قد بلغ أعلى درجات الحب، فيترجم كل منهما وده إلى سلوكيات وأفعال تجاه الآخر[10]، فيكون الود- بهذا الاعتبار- نابع من الحب؛ فكأن الود خاص تترجمه الأفعال، والحب عام مكنون في القلوب، وكل ودود محب، وليس كل محب ودودا[11]. وهناك من اعتبر المودة سلوك عملي متبادل بين الزوجين يأتي بعد المحبة التي هي عاطفة نفسية، فكأن المودة ترجمان للمحبة[12]. وقيل أيضا في معنى الود؛ أنه درجة الحب المعتدلة دونما إفراط أو تفريط[13] وذلك بخلاف العشق –كم سيأتي.

2- تعريف المحبة لغة واصطلاحا:

إنه من المدلولات اللغوية للمحبة، أنها من "الحب: نقيض البغض، وهو بضم الحاء المهملة وكسرها: هو الوداد والمحبة"[14] وقيل: "أصل المحبة الصفاء؛ لأن العرب تقول: لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حبَب الأسنان. وقيل: مأخوذة من الحُباب، وهو ما يعلو الماء عند المطر الشديد"[15] وأما اصطلاحا: فتعريف المحبة تعريفا دقيقا شاملا لمعانيها، وجامعا لفتات شتاتها، يعد أمرا صعبا ومتعذرا، لأن المحبة تتعلق بالذوق والإحساس؛ لذلك تعددت تعريفاتها واختلفت من علم إلى آخر؛ بل في العلم الواحد؛ كعلم النفس والاجتماع، واللغة والأدب، والتصوف، فهذا الإمام ابن القيم الجوزية يقول: "لا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاء وجفاء، فحدها وجودها...وَوَضَعُوا لمعناها حرفين مُنَاسِبَيْنِ للمسمى غاية المناسبة "الْحَاءَ" التي هي مِنْ أقصى الحلق، وَ"الباء" الشَّفَوِيَّةَ التي هِيَ نهايته. فَلِلْحَاءِ الابتداء، وللباء الانتهاء. وَهَذَا شأن المحبة وتعلقها بالمحبوب. فَإِنَّ ابتداءها مِنْهُ وانتهاءها إليه"[16]. وقيل: هي حضور المحبوب عند المحب دائما. قال شاعر: خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثواك في قلبي فأين تغيب؟ [17]

3- تعريف العشق لغة واصطلاحا:

قال ابن فارس في معنى (عشق): "العين والشين والقاف: أصل صحيح يدل على تجاوز حد المحبة"[18] وقيل: "العشق: فرط الحب، والتعشق: تكلف العشق...وقال الفراء: يقولون امرأة محب لزوجها وعاشق"[19]. وأما اصطلاحا: فالعشق هو "الحب المفرط الذي يخاف

على صاحبه منه"[20] ومن العلماء من مدحه، ومنهم من ذمه، ومنهم من جمع بين الأمرين، وكذلك الحال في جعله اختياريا أو اضطراريا، أم أنه جمع الأمرين معا؟ وبعد البحث في مدلول الكلمة، تبين لي أن العشق لا يذم مطلقا كما لا يمدح مطلقا، بحيث؛ ما وافق الشرع كان محمودا، وما خالفه كان مذموما؛ فعشق أولياء الله الصاحين، وعشق الخير، وعشق الزوجة الصالحة، فكل ذلك وغيره مما مثله محمود، وأما عشق كل محضور؛ كعشق امرأة لا تحل، فلا شك أن ذلك وغيره مما مثله مذموم. وأما من حيث هل اضطراري أو اختياري؟ ظهر لي أن الرأي الثالث الذي جمع الأمرين معا هو الأقرب إلى الصواب، أي أن العشق إذا تمكن في القلب بأسباب كالنظرة المقصودة مثلا؛ كان اختياريا، لذلك أمرنا الله تعالى بغضّ البصر، وإذا لم تدخل فيه إرادة المحب؛ كالنظرة العفوية؛ كان اضطراريا.

4- في الفرق بين المودة والمحبة والعشق:

تبين لي من خلال ما تم بسطه؛ أن كل من المودة والعشق من مراتب وأسماء المحبة، إضافة إلى الصبابة والغرام والشغف والتيم والخلة والتعبد حسب علماء اللغة والتصوف. وأما في الفرق بين المودة والمحبة، فقد تعددت الآراء بتعدد اللغويين والشعراء والمفسرين والمتصوفة، فمنهم ما جعلهما بمعنًى واحد كالإمام ابن كثير، وهناك من عدها-أي المودة- أعلى قدرا من المحبة كابن القيم الجوزية، بينما ذهب آخرون إلى أن المحبة مضمرة في القلوب، والمودة ظاهرة في السلوك كالمهدي حسين بن محمد. وصفوة القول؛ أرى أن المحبة تتميز بالاعتدال والتوسط المحكم، بينما المودة أعلاها مرتبة. وأما العشق هو ما زاد عن حد المحبة والمودة معا، إذ فيه تكلف على النفس ما لا تطيقه، لذلك؛ انعدم ورود لفظ(العشق) في القرآن الكريم بخلاف اللفظين السابقين.

المطلب الثاني: مفهوم الرحمة والألفاظ ذات الصلة: (الرأفة والشفقة نموذجا):

1- تعريف الرحمة لغة واصطلاحا:

الرحمة في اللغة كالمرحمة والرحموت، تدل على الرقة والتعطّف، يقال: تراحم القوم إذا رحم بعضهم بعضا. و(الرحيم) اسم لله وحده، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ﴾ الإسراء: 109، وقد يكون الرحيم راحما كما قد يكون مرحوما. والرحموت من الرحمة، يقال: رهبوتٌ خير من رحموتٍ؛ أي لأن تُرهب خير من أن تُرحم. والرَّحِمُ والرِّحْمُ: القرابة[21]. وأما اصطلاحا: فالرحمة هي رقة في القلب تقتضي الإحسان إلى المرحوم[22]. ذكر جميل صليبا أن من معاني الرحمة: "الإيمان، النعمة، الرزق، النصر، الفتح، العافية، المودة، السعة، المغفرة، العصمة، العفو..." ثم بين أن الشعور بها مختلف باختلاف المثل العليا بين الناس، فإذا كانت المثل مبنية على القوى المادية كانت الرحمة منقطعة، وإذا كانت مبنية على القوى الروحية كانت أثبت وأوسع، كما أشار إلى اختلاف النظار في اعتبار الرحمة صفة للذات أم للفعل[23] وما ألاحظه؛ هو أن الرحمة صفة للإنسان في ذاته باعتبار فطرته الأولى السليمة والسوية، فالإنسان يرحم غيره أيا كان! امتدادا لرحمة الله به خَلقًا ونعمًا.. وهذا هو الأصل، قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ البقرة: 105، وصفة لفعله؛ إذا تجلت فيه مظاهر الرحمة تجاه أي ضعيف كان! كالعفو عند الإساءة، قال تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ الشورى: 40. وعليه؛ معاني الرحمة في القرآن الكريم كثيرة جدا، إذ كل نعم الله تعالى رحمة منه إلى

خلقه، وقد وصى بها رسوله ﷺ فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ الأنبياء: 107، ثم نبهه ﷺ من نقيض الرحمة؛ وهي قسوة القلب، فقال عز من قائل: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ آل عمران: 159، لذلك؛ جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ فاطر: 2، أن المراد بالرحمة في الآية: الرزق والمطر والصحة والعلم والوالدين والأبناء وغير ذلك من النعم فهي رحمة، فكل نعمة رحمة من الله، وكل رحمة نعمة من الله.

2- تعريف الرأفة لغة واصطلاحا:

الرأفة لغة: من "رأف به رأفةً: أي رحمه أشدّ الرحمة وعطف عليه، فهو رائف، فيقال: رأْفَةً ورآفة، واسترأفه؛ أي طلب منه الرحمة واستعطفه"[24]. وأما اصطلاحا: قال ابن منظور: الرأفة أرق من الرحمة، ولا تكاد تقع في الكراهة، والرحمة قد تقع في الكراهة[25] ، وأما الإمام الرازي فقد جعل الرأفة أشد الرحمة[26] .

ومما يستفاد من تعريفات الرأفة؛ أنها تعبير عن الرِّقة والرحمة، والعطف، وأنها خلق متعد إلى جميع الخلق كان إنسانا أو حيوانا. وقد اتفق غير واحد من أهل اللغة؛ أن الرأفة دفع السوء عن الشخص، بينما الرحمة دفع السوء وجلب الخير، وإن كان هناك اختلاف في تعابيرهم؛ إلا أنها تتفق في كون الرأفة تفوق درجة الرحمة في المرتبة، كما ذكر العسكري في كتابه الفروق اللغوية[27].

3- تعريف الشفقة لغة واصطلاحا:

ذكر الرازي أن "الشفقة هي رقة من نصحٍ أو حُب يؤدي إلى خوف، والشفقة من الإشفاق... والشفق: الخوف، يقال: مشفق من هذا الأمر أي خائف، والشفيق: الناصح الحريص على صلاح المنصوح[28]. وقيل الشفق: اختلاط ضوء النهار بسواد الليل عند غروب الشمس لقوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ الانشقاق: 16[29]. وأما اصطلاحا: فالشفقة والشفق والإشفاق عناية مختلطة بخوف؛ لأن المشفق يحب المشفق عليه ويخاف ما يلحقه، لقوله تعالى: ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ الأنبياء: 49[30] وذكر ابن القيم الجوزية؛ أن الإشفاق رقة الخوف، وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه، فنسبته إلى الخوف، نسبة الرأفة إلى الرحمة، فإنها ألطف الرحمة وأرقها[31] وذكر الإمام الجرجاني أيضا أن الشفقة: هي صرف الهمة إلى إزالة المكروه عن الناس[32] ومن خلال هذه التعريفات؛ اتضح لي أن الشفقة أكثر رتبة من الرحمة والرأفة، ونظرا لشدة حب ورعاية المشفق بالمشفق عليه، اتصلت الشفقة بالخوف، فكأن الشفقة نتاج حب وعناية مختلطة برحمة وخوف من أذى قد يلحق بالمشفق عليه، ومن العلماء من جعل الشفقة تكمن في دفع الضرر عن الناس رحمة بهم؛ لتكون الرحمة أعم، بينما الشفقة أخص.

4- في الفرق بين الرحمة والرأفة والشفقة:

لا شك أن دراسة الفرق بين الألفاظ ذات الصلة؛ يزيل اللبس، ويكشف الغموض الذي قد يعتري بعض المصطلحات، والذي توصلت إليه من خلال دراسة هذه الفروق اللغوية؛ هو أن كل من الرحمة والرأفة والشفقة قيم إنسانية رفيعة، صالحة ونافعة

لكل خلق الله؛ كان إنسانا أو حيوانا أو نباتا، ولهذه القيم تجليات عدة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويمكن تلخيص أهم هذه الفروق في التراتبية التالية: فالرحمة عامة للخلق كافة، تقتضي جلب المنفعة. بينما الرأفة خاصة لمن يستحق دفع المضرة وجلب المنفعة، وهي أعلى رتبة من الرحمة. بينما الشفقة أخص منها، كونها نتاج حب خالص ممزوج بالرعاية والخوف من ضر قد يصيب المشفق عليه. وكل من الرحمة والرأفة والشفقة تنتُجن عن الرقة في القلب، فنقول بهذا الاعتبار: رق قلبه على العجوز فرحمها ورأف بها وأشفق عليها.

المبحث الثاني: **أقوال المفسرين في قوله تعالى**: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الروم: 20

لقد تعددت وجوه التفسير في هذه الآية القرآنية الكريمة، شأنها شأن باقي الآيات التي احتملت أكثر من رأي؛ وفي سياق قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم: 20، عد الله تعالى جملة من نعمه، فجعلها آيات قاطعة تدل على وحدانيته وعظمته عز وجل، فجعل خلق الإنسان من التراب بداية من أصل آدم (عليه السلام)، وانتشاره في الأرض، من الآيات الدالة على قدرته وعظمته المطلقة، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ الروم: 19، قال ابن عادل الحنبلي: "وقوله: ﴿مِّن تُرَابٍ﴾ أي؛ خلق أصلنا وهو آدم من تراب، وأنه خلقنا من نطفة والنطفة من الغذاء، والغذاء إنما يتولد من الماء والتراب ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ في الأرض. والترتيب والمهلة هنا ظاهران فإنهم يصيرون بشراً بعد أطْوارٍ كثيرة و﴿تَنتَشِرُونَ﴾ حال"[33] أي؛ تتفرقون. ثم قال سبحانه: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ الروم: 21، حيث وجه الله تعالى هذا الخطاب القرآني للناس جميعا لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم﴾ أي لأجل نفعكم جميعا دون جنس أو طائفة أو فئة عمرية؛ لأن الجميع محتاج لذلك بغية الفلاح في الحياة الأسرية معاشا ومعادا.

وفي قوله تعالى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ يُذَكِّر الله تعالى مرة أخرى بآية ثانية من آياته الدالة على وحدانيته وقدرته ، وهي خلقه من أنفس الإنسان أزواجا له، و﴿أَنفُسِكُمْ﴾ احتملت في هذه الآية أن تكون بمعنى الإنسان عامة، أو المراد بها الرجال خاصة نسبة إلى آدم عليه السلام، كما احتملت الكلمة القرآنية ﴿أَزْوَٰجًا﴾ معنيين

أيضا؛ فالزوج يقال لامرأة الرجل، نسبة لحواء، ويقال لرجل المرأة، وعليه؛ وقع اختلاف تنوع لا تضاد بين المفسرين في المراد من الآية على معنيين اثنين:

أولهما: من المفسرين من فسر قوله تعالى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنَ اَنفُسِكُمُۥٓ أَزْوَٰجاً﴾ قالوا: إن ذلك مما خوطب به الرجال، خلق الله لهم من أنفسهم أزواجاً، والمراد: حواء، خلقها الله تعالى من آدم – عليه السلام – وهذا اختاره كبير المفسرين أبو جعفر بن جرير الطبري[34] ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿هُوَ أَلذِے خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ الأعراف: 189، ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ وهي آدم عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ وهي حواء، والجعل بمعنى الخلق. فالله تعالى أخبر أن زوجها قد خُلق منها، فحواء خُلقت من آدم – عليه السلام – فيكون ذلك من خطاب الرجال ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنَ اَنفُسِكُمُۥٓ أَزْوَٰجاً﴾ الروم: 21

ثانيهما: ﴿مِّنَ اَنفُسِكُمُۥٓ﴾ أي: من جنسكم، وهذا الذي ذهب إليه صاحب التفسير الكبير[35] وبه قال ابن كثير[36] والطاهر ابن عاشور[37] وذلك كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنَ اَنفُسِكُمْ﴾ التوبة: 128، يعني: من جنسكم وليس من الملائكة، ولا من الجن، وإنما من الإنس، تفهمون عنه، وتتلقون عنه، وتشاكلونه، ويشاكلكم، ويشهد لهذا المعنى ما ذكر من شواهد المعنى الأول، كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿هُوَ أَلذِے خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَاۖ﴾ الأعراف: 189.

وعليه؛ فالمراد من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ـايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنَ اَنفُسِكُمُۥٓ أَزْوَٰجاً﴾ الروم: 21، احتملت أن تكون في آدم عليه السلام، كما احتملت أن تكون في الرجال، وقيل: أنها خطاب للجميع؛ وعليه فأوجه التفسير في هذه الآية وإن تعددت واختلفت؛ فقد اتفقت وصحت، وكان اختلافها اختلاف تنوع لا تضاد.

وأما قوله تعالى: ﴿لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا﴾ حيث اتفق معظم المفسرين على أن اللام للتعليل، فالله خلق الزوج من هذه النفس من أجل أن يألفها، وأن يسكن ويطمئن إليها، وأن تطيب بها نفسه، وتطيب نفسها به لأنهما من جنس واحد. فمراده أنه لو كانت الزوجة من جنس آخر لم يحصل هذا السكن، فالجنسان المختلفان لا يسكن أحدهما إلى الآخر بحال، ولا يميل إليه، كما يعلل بذلك صاحب التفسير الكبير[38] والحافظ ابن كثير[39] وبهذه الآية احتج العلماء على من زعم إمكان التزاوج بين الإنس والجن. وذكر القرطبي عند تفسيره للآية، أنه "يقال الرجل أصله من الأرض، وفيه قوة الأرض، وفيه الفرج الذي منه بدأ خلقه؛ فيحتاج إلى سكن، وخلقت المرأة سكنا للرجل: قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ ـايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ الروم: 19. وقال

عز وجل: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ الروم: 20، فأول ارتفاق الرجل بالمرأة سكونه إليها مما فيه من غليان القوة، وذلك أن الفرج إذا تحمل فيه هيج ماء الصلب إليه، فإليها يسكن، وبها يتخلص من الهياج، وللرجال خُلِقَ البُضْعُ منهن، فأعلم الله عز وجل الرجال أن ذلك الموضع خلق منهن للرجال، فعليها بذله في كل وقت يدعوها الزوج، فإن منعته فهي ظالمة وفي حرج عظيم ويكفيك من ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة عن الرسول ﷺ قال: «والذي نفسي بيده ما من رجل يدعو امرأته إلى فراشها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطا عليها حتى يرضى عنها. وفي لفظ آخر: إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح»"[40].

والملاحظ مما سبق بسطه من أقوال المفسرين؛ أنها تتفق على كون السكن في هذه الآية اتخذ اتجاها معنويا ساميا، إذ معناه من السكون والسكينة والطمأنينة والراحة، وكل هذا بخلاف الاضطراب والتنغيص والحيرة والتنافر، فالرجل بعد كده وشقائه في عمله، يعود بيته لينعم بالسكينة إلى زوجته، فيصير بيته سكنا، فكأنه في حقيقة أمره يسكن زوجته لا بيته، وليس يسكن عندها أو تسكن عنده، ولا يسكن معها أو تسكن معه، وإنما يسكن إليها وتسكن إليه بكل الطرق. قال الإمام الرازي: "يقال سكن إليه للسكون القلبي، ويقال سكن عنده للسكون الجسمي؛ لأن كلمة "عند" جاءت لظرف المكان وذلك للأجسام و"إلى" للغاية وهي للقلوب"[41]. وعليه؛ اتفق المفسرون على أن السكينة غاية، تتحقق بالمودة والرحمة، فالله تعالى ذكر الغاية؛ ثم ذكر وسائلها بعد الغاية مباشرة، فقال عز وجل: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "ثم من تمام رحمته ببني آدم، أن جعل أزواجهم من جنسهم، وجعل بينهم وبينهن مودة: وهي المحبة، ورحمة: وهي الرأفة، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبته لها، أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد، أو محتاجة إليه في الإنفاق، أو للألفة بينهما".[42]

وقال ابن عادل الحنبلي: "﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ قيل: ﴿مَّوَدَّةً﴾ بالمجامعة ﴿وَرَحْمَةً﴾ للولد؛ تَمَسُّكاً بقَوْلِه تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآءَ﴾ مريم: 2، وقيل :جعل بين الزوجين (المودة والرحمة) فهما يتوَادَّانِ، وَيَتَرَاحَمَانِ وما من شيء أحبَّ إلى أحد من الآخر من غير رحم بينهما ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه: إن في خلق الأزواج لآيات . ويحتمل أن يقال: إنَّ في جعل المودة والرحمة بينهم آيات لقوم يتفكرون في عظمة الله وقدرته"[43].

وجاء في تفسير القرطبي: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم أن: المودة: الجماع. والرحمة: الولد، وقيل: (المودة والرحمة) عطف قلوبهم بعضهم على بعض... وقال السدي: "المودة: المحبة، والرحمة: الشفقة، وروي معناه عن ابن عباس أيضا قال: المودة: حب الرجل امرأته، والرحمة: رحمته إياها أن يصيبها بسوء"[44].

وقال محمد سيد طنطاوي في تفسير الآية: "وَجَعَلَ- سبحانه- بينَكُمْ يا معشر الأزواج والزوجات مَوَدَّةً وَرَحْمَةً أي: محبة ورأفة، لم تكن بينكم قبل ذلك، وإنما حدثت عن طريق الزواج الذي شرعه- سبحانه- بين الرجال والنساء، والذي وصفه- تعالى- بهذا

الوصف الدقيق، في قوله- عز وجل: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ البقرة: 189"[45].

وجاء في تفسير الإمام السعدي: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على رحمته وعنايته بعباده وحكمته العظيمة وعلمه المحيط؛ ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ تناسبكم وتناسبونهن، وتشاكلكم وتشاكلونهن ﴿لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بما رتب على الزواج من الأسباب الجالبة للمودة والرحمة، فحصل بالزوجة الاستمتاع واللذة والمنفعة بوجود الأولاد وتربيتهم، والسكون إليها فلا تجد بين أحد في الغالب مثل ما بين الزوجين من المودة والرحمة"[46].

وأما الطاهر بن عاشور، فقال في تفسيره الآية: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ "هي آية تنطوي على عدة آيات منها: أن جُعل للإنسان ناموس التناسل، وأن جُعل تناسله بالتزاوج ولم يجعله كتناسل النبات من نفسه، وأن جعل أزواج الإنسان من صنفه ولم يجعلها من صنف آخر؛ لأن التأنس لا يحصل بصنف مخالف، وأن جعل في ذلك التزاوج أنساً بين الزوجين ولم يجعله تزاوجاً عنيفاً أو مهلكاً كتزاوج الضفادع، وأن جعل بين كل زوجين مودة ومحبة، فالزوجان يكونان من قبل التزاوج متجاهلين؛ فيصبحان بعد التزاوج متحابين، وأن جعل بينهما رحمة، فهما قبل التزاوج لا عاطفة بينهما؛ فيصبحان بعده متراحمين كرحمة الأبوة والأمومة"[47].

وأما أوجه التفسير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ قال الطاهر بن عاشور: "﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ متعلق بـ﴿لَآيَاتٍ﴾ لما فيه من معنى الدلالة، وجعلت الآيات: ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ لأن التفكر والنظر في تلك الدلائل هو الذي يجلي كنهها ويزيد الناظر بصارة بمنافع أخرى في ضمنها. والذين يتفكرون : المؤمنون وأهل الرأي من المشركين الذين يؤمنون بعد نزول هذه الآية، والخطاب في قوله تعالى: ﴿أَنْ خَلَقَ لَكُم﴾ لجميع نوع الإنسان الذكور والإناث"[48]. ثم ذكر صاحب التفسير الميسر: "ومن آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق لأجلكم من جنسكم -أيها الرجال- أزواجًا؛ لتطمئن نفوسكم إليها وتسكن، وجعل بين المرأة وزوجها محبة وشفقة، إن في خلق الله ذلك لآيات دالة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يتفكرون ويتدبرون"[49]. وقد جاء في إحدى محاضرات ابن عثيمين ما مضمونه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ المذكور ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ بيَّن أن اسم الإشارة "ذلك" وإن كان مفردا لكنه عائد إلى آيات متعددة، أولها: عملية الخَلق، وثانيها: هذا الخلق من الأنفس أزواجا، وخلقه تعالى للمودة والرحمة هاتان آيتان؛ فكان الجميع أربع آيات تحتاج إلى تأمل وإلى تفكر ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي؛ يتفكرون في صنعه تعالى: وهو الخَلق،

وفي حكمته، وفي رحمته وفي غير ذلك مما يتعلق بهذا المعنى[50]. وبناء على ما سبق؛ فإن معظم أقوال المفسرين تلتقي وتتفق في معنى هذه الآية، وما اختلافات أوجه التفسير فيها، إلا اختلافا متنوعا وتكميليا، لا اختلاف تضاد أو نقص.

المبحث الثالث: الصلة التفصيلية بين قيمة السكينة والمودة والرحمة:

المطلب الأول: صلة السكينة بقيمة المودة والرحمة:

إن العلاقة بين قيمة السكينة وقيمة المودة والرحمة؛ علاقة وطيدة، وصيلة متينة. وقد جعل الله كل من قيمة المودة والرحمة، وسيلتين لإحقاق غاية السكينة بين الزوجين، من أصل أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فالمودة والرحمة من (الودود والرحيم)، وشذرات قداسة هذين الاسمين الحسنين؛ تعدت إلى العلاقة الزوجية الطاهرة؛ لنفهم أن المودة والرحمة، من المستحيل أن تكونا بين رجل وامرأة دون مؤسسة الزواج المبارك، وبالتالي استحالة السكن إلى بعضهما بعضا بالمعنى الروحي. هذا فضلا عن اعتبار قيمة المودة والرحمة بين الزوجين، ضمان رباني لكلا الطرفين، وهما مقترنتان في الآية غير منفصلتين، واقترانهما هذا؛ دل على وجوب اقترانهما في الحياة الزوجية؛ حتى تتحقق سكينةً كاملةً، بل السكينة تنقص بين الزوجين بقدر نقصان المودة والرحمة، ولا يُتصور وجود زوجين تجمعهما مودة ورحمة يعيشا سكينةً ناقصة، كما لا يتصور غيابهما معا، لأن الحياة الزوجية بدون مودة ورحمة حياة لا تطاق! إذ لم نقل تستحيل؟!

إن السكينة قيمة كباقي القيم الأخرى، وأنها في سياق هذه الآية القرآنية اتخذت طابعا غائيا، كونها نتاج للمودة والرحمة، وقد أشار غير واحد من الباحثين؛ إلى أن السكينة هي الهدوء والطمأنينة في قلوب الزوجين المؤمنين، مصداقا لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ الفتح: 4، وهذا حال القيم؛ فتارة تتكامل، وتارة تتصادم، وتارة أخرى تتبادل الأدوار فيما بينها، وهكذا.

المطلب الثاني: صلة قيمة المودة بقيمة الرحمة:

لقد ذكر البلاغيون؛ أن ألفاظ القرآن الكريم محبكة حبكا ربانيا ساميا، ولم يذكرها الله تعالى إلا في محلها لأداء المعنى الدقيق، وهذا ما اقتضته أسرار البلاغة الربانية لكلمتي (المودة) بدل (المحبة والعشق)، لأن المودة روح المحبة وخالصها، وهي التي يجب أن تتأسس عليها العلاقة الزوجية؛ لما فيها من إشباع عاطفي للزوجين معا. وأما العشق فهو ما زاد عن حد المحبة والمودة معا، مما ينتج تكلفا على النفس وهلاكا للقلب. وأما كلمة (الرحمة) بدل (الرأفة والشفقة) وذلك لأن الرحمة أقل مرتبة من الرأفة، فالرأفة للرحمة؛ كالمودة للمحبة؛ فكانت (الرحمة) للعلاقة الزوجية قيمة وسطية بدل "الرأفة" إذ فيها تنازلات جسام، قد تلحق ضررا لزوج على حساب آخر، وأما الشفقة فهي أقرب إلى الخوف، بحيث لم تتلاءم مع المودة سيما يغلب عليها طابع الخوف المبالغ فيه على المحبوب، بل وتتعارض مع إحقاق الطمأنينة القلبية بين الزوجين. وما تأويل المفسرين للمودة بالمحبة؛ إلا من باب تقريب المعنى. وقد أسفرت دراسة اقتران قيمتي (المودة والرحمة) من خلال قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم: 20، على مجموعة من النتائج، أجملها فيما يلي:

1_ الاستفاء:

- أن القيمتين (المودة والرحمة) قد تكونا في الحياة الزوجية المستقرة، بحيث كل خلية قيمية للمودة أو للرحمة، تعمل بشكلها الرباني في تمام واستقرار وانتظام؛ فتستوف السكينةُ حقها لتصبح تامة بين الزوجين فينعمان بها. وهذا ما سعى الهدي القرآني إلى إحقاقه، إلا أن هذه العلاقة التي تستوف الحد الأقصى في المودة والرحمة، هي علاقة كاملة، وحياة زوجية نموذجية، وإن كانت الحياة النموذجية الكاملة مستبعدة شيئا ما حتى في حياة النبي ﷺ، حيث تراوح مؤشر المودة بينه وبين أزواجه؛ لأن ذلك فوق طاقة البشر، قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ النساء:128؛ أي لن تستطيعوا العدل في الحب والجماع، وفي السنن أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول بعد عدلة في القسم «اللهم هذا فيما أملك فلا تؤاخذني فيما تملك ولا أملك»[51] إضافة إلى الكثير من المواقف في حياته الزوجية ﷺ تدل على استحالة الحياة المثالية في الدنيا، بل حتى في الجنة كانت وسوسة إبليس (لعنه الله) لآدم (عليه السلام).

2_ الجمع:

- أن اقتران القيمتين في الآية دل على وجوب اجتماعهما في الحياة الزوجية؛ لإحقاق السكينة بين الزوجين.
- أن الله تعالى ذكر المودة قبل الرحمة؛ لأن بداية الحياة الزوجية تحتاج عاطفة، والاستمرارية تحتاج مودة ورحمة.
- أن المودة مطلوبة في السراء، والرحمة مطلوبة في الضراء، وهذه حكمة لازدواجية الكلمتين، ولمحة ربانية على أن الزوجين سيواجهان مصاعب الحياة، فهناك أيام سهلة وسارة ويسيرة، وهناك أيام صعبة ومحزنة وعسيرة. فللأولى: المودة، وللثانية: الرحمة.
- أن المودة تكون في أوقات الصحة، والقوة، والسعة في العيش، أما الرحمة فلابد منها في أوقات الضعف، والمرض، والضيق، وضغوط الحياة التي نعيشها؛ سيما غلاء الأسعار، والكوارث الطبيعية والحروب وغيرها.
- أن المودة تكون في بداية الحياة الزوجية، والرحمة في آخرها.

3_ المعاوضة:

- أن "المودة" عاطفية وتتغير بتغير الحالة النفسية، فمؤشرها تارة يرتفع، وتارة أخرى ينخفض إلى درجة الانعدام، فكأنها تتقلب بتقلب القلب وتغيره تجاه الزوج لسبب من الأسباب، فإن انخفضت المودة أو غابت لبرهة؛ عوضتها "الرحمة" لأنها إنسانية، وقد تقل "الرحمة" أحيانا لكنه لا ينبغي أن تنعدم. وعليه؛ فالمودة قد تغيب نسبيا وفي مدة قليلة، لكنه لا ينبغي أن تغيب كليا وأبديا. وأما الرحمة فقد تقل لكنه، لا ينبغي أن تنعدم.
- أردف الله المودة بالرحمة، إشارة منه تعالى على أنه إذا تقلصت المودة في العلاقة الزوجية، أو انعدمت، عوضتها الرحمة وضلت تقوم بدورها حتى تحيي المودة من جديد.

4_ التبادل:

- أن القيمتين متبادَلتان بين الزوجين، وليس المودة من المرأة والرحمة من الرجل، أو العكس، لقوله تعالى في الآية نفسها: ﴿بَيۡنَكُم﴾ ولم يقل: "لكم".

5_ الاشتراك:

- أن كليهما (المودة والرحمة) من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى، ف(المودة) من الودود، و(الرحمة) من الرحيم.
- أن لكليهما (المودة والرحمة) تراتبية من حيث الألفاظ ذات الصلة بهما، فللمودة: المحبة والعشق وغيرهما، وللرحمة: الرأفة والشفقة وغيرهما.
- أن المودة تنتجها وتحافظ عليها قيم أخرى؛ كالصدق، الإخلاص، الوفاء، الكرم، الإيثار، الاحترام، التضحية، الإحسان، الغيرة المضبوطة، التغافل والتنازل المضبوطان، الخدمة المتبادلة، ... وكذلك الشأن نفسه للرحمة التي تأتي تباعا.
- أنهما نفسيتان مضمرتان ولا يتضحان إلا بترجمتهما قولا وفعلا.
- أنهما متشابكتان، وغير منفصلتين.
- أن كل من المودة والرحمة رزق من الله، ففي حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: «وَكَانَ رَسولُ اللهِ ﷺ إذَا ذَبَحَ الشَّاةَ، فيَقولُ: أَرْسِلُوا بهَا إلى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ، قالَتْ: فأغْضَبْتُهُ يَوْمًا، فَقُلتُ: خَدِيجَةَ، فَقالَ: رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنِّي قدْ رُزِقْتُ حُبهَا» [52].
- أن كل من (المودة والرحمة) من القيم المرغوب فيها.
- أنه بالإمكان بقاء القيمتين مشتركَتين من بداية الحياة الزوجية وفي نهايتها؛ أي من فترة الشباب إلى الشيخوخة إلى وفاة الزوج أو الزوجة.

6_ الاختلاف:

- أن لقيم المودة تأثير إيجابي لإحقاق قيمة الرحمة التي تأتي تباعا.
- قيم المودة تكون عفوية ولا تكليف فيها على النفس، بينما قيم الرحمة فيها تكليف على النفس لوجود الترغيم فيها.
- قيمة المودة؛ فطرية تزيد وتنقص وقد تنعدم، بخلاف قيمة الرحمة فقد تزيد وتنقص ولكن لا يجب أن تنعدم.
- انعدام المودة تعوضه الرحمة، وانعدام الرحمة لا تعوضه المودة.
- قيمة المودة من بداية الحياة الزوجية، وقيمة الرحمة في نهايتها.
- قيمة المودة والرحمة من بداية الحياة الزوجية، وقيمة الرحمة فقط في نهايتها.
- قيمة المودة والرحمة من بداية الحياة الزوجية، إلى نهايتها.

7_ الاحتمال:

- يُحتمل بزوغ قيمة الرحمة من بداية الحياة الزوجية إلى نهايتها.
- يحتمل بزوغ قيمة الرحمة؛ في نهاية الحياة الزوجية دون بدايتها.

- يحتمل انعدام المودة لتعوضه الرحمة، ولا يحتمل انعدام الرحمة لتعوضه المودة.
- يحتمل استمرارية الحياة الزوجية في غياب المودة، ولا يحتمل استمراريتها في غياب الرحمة.
- يحتمل (بنسبة ضئيلة جدا) استمرارية الحياة الزوجية (لوقت قليل جدا) عند غياب المودة والرحمة لكنه ليس بشكل تام، لأنه رغم الصراعات والتحديات المختلفة التي قد يتخبط فيها الزوجان، أو البعد الفكري أو المجتمعي أو الثقافي...تبقى شذرات المودة، وفتات الرحمة عالقتان في القلب، وتبقى الحياة مستمرة؛ لأن الله ضمنهما لعباده في الآية وسرعان ما تقع لحظة النطق بالطلاق، يقع الجفاف الكامل التام للمودة والرحمة؛ وينتزعهما الله انتزاعا من قلبيهما.
- يحتمل استمرارية الحياة الزوجية في غياب المودة لأن الله تعالى جعل الرحمة في العلاقة الزوجية شرطا ثان للسكينة في حالة ما إذا غاب الشرط الأول(المودة)، فيتطلب من الزوجين –رغم انعدام المودة–مواصلة العشرة بالمعروف. وري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاءه رجل يريد طلاق زوجته بدعوى أنه لا يحبها، فقال له: "لا تفعل، فرد الرجل: لكني لا أحبها، فقال عمر رضي الله عنه: ويحك! ألم تبن البيوت إلا على الحب؟ فأين الرعاية وأين التذمم"[53]، والمعنى: أنه أي ليس شرطا أن يحب الزوج زوجته ويعشقها، فربما كان هناك أبناء، أو قداسة أو خدمة متبادلة، أو أمور مشتركة، أو مراعاة للخاطر أو إكراما للعائلة، أو خوفا من قطع رحم... كل ذلك يجعل الزوج محافظا على بيته، مع ضرورة غض البصر، والإكثار من الأدعية، كقول الرجل: "اللهم زيني في عينيها وزينها في عيني"[54] وهذا ما يؤكد أن حقيقة الجمال جمال الجوهر والخُلق، وليس جمال المظهر والخِلقة. فلذلك كان قيس بن الملوح يقول:

فَيا رَبِّ إِذ صَيَّرتَ لَيلى هِيَ المنى ....فَزِنّي بِعَينَيها كَما زِنتَها لِيا

وَإِلّا فبغِّضها إِلَيَّ وَأَهلَها........فَإِنّي بِلَيلى قَد لَقيتُ الدَواهِيا [55]

ومن خلال ما تم بسطه في هذا البحث؛ أكون قد خلصت إلى إجابة عن تساؤلاته؛ ألخصها في الآتي:

1) أن المودة والرحمة غير منفصلتين عن بعضهما بعض، لكنهما مقترنتان، ومفتوحتان على كل طبائع العلاقة الزوجية ما دامت قائمة.
2) أن المودة تحتمل الرحمة؛ فالزوج إذا أحب زوجه حتما رحمه. بينما الرحمة قد لا تحتمل المودة؛
3) أن كل من المودة والرحمة تحل محل بعضها بعضا عند انعدام واحدة منهما؛ لكنه لا يطاق انعدامهما معا في الحياة الزوجية؛ فإذا انعدمتا، حلت المشاكل، وصعبت المعاشرة، وتعذرت الحلول؛ وكثرت الفراغات؛ فيملأها الطلاق على عجل؛
4) أن كل من القيمتين (المودة والرحمة) لا تتحققان بذاتهما، وإنما بقيم أخرى من خلال اعتبار واحد: وهو أن القيم كلها تعد منظومة واحدة مترابطة تخدم بعضها بعضا، وإن تفاوتت أحيانا في مراتبها؛
5) أن كل من المودة والرحمة، لا يختص بهما زوج عن زوجه، وإنما متبادلتان بينهما، إذ كل منهما يود الآخر ويرحمه في مختلف مراحلهما العمرية.

الخاتمة:

وقد لخصت فحوى بحثي هذا في ثلاثة فوائد:

الفائدة الأولى: المودة بدل المحبة والعشق، والرحمة بدل الرأفة والشفقة:

لقد خلص البحث إلى أن المودة أعلى من المحبة في المرتبة، وهي من الود كالحب من المحبة، وقد ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ الروم: 20، دلالة على علو مقام الزواج بين الزوج وزوجه بعلو مرتبة قيمة المحبة ونضجها إلى مرتبة المودة، دون الوصول إلى حالة العشق لما فيه من مبالغة في الحب، وإرهاق للقلب، وتكليف للنفس. وأما قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةً﴾ دون الرأفة أو الشفقة؛ فلأن الرحمة أعم من الرأفة من جهة، والرأفة قد تقتضي التنازل المبالغ فيه مما لا يحبذه مقام الزواج من جهة أخرى. كما أن رأفة الإنسان بغيره، تنتج عن رقة كثيرة في القلب أكثر من حضور النباهة في العقل، والزواج لا بد أن تتساوى فيه عقارب الفكر في العقل، مع عقارب الشعور في القلب. وأما الشفقة فلا تتناسب مع مقام الزواج، لأنها وليدة الحب الممزوج بالرعاية وبالخوف عن المشفق عليه من الضرر، مما قد يسبب الخوف؛ عدم الشعور بالطمأنينة القلبية والراحة النفسية، فكان من بلاغة القرآن الكريم ذكر المودة دون المحبة، والرحمة بدل الرأفة أو الشفقة.

الفائدة الثانية: قيمة السكينة وعلاقتها بقيمة المودة والرحمة:

وأما السكينةُ فهي حالة هادئة ومستقرة في النفس، يجدها الزوجان مرتعا طيبا للتنعم بالحياة الزوجية، وباعثا أساسا لشكر الله تعالى على نعمه، فكانت السكينةُ غاية الزواجِ ومقصدُه، ونتاج متمخض عن قيمة المودة والرحمة، كما تزيد السكينة وتنقص بقدر مؤشر المودة والرحمة وقيمهما. وقد قدم الله تعالى السكينة في الآية باعتبارها نتاجا ومقصدا عاما من الزواج، ثم ذكر وسيلتي إحقاقها وهي المودة والرحمة.

الفائدة الثالثة: قيمة المودة وعلاقتها بقيمة الرحمة:

وأما في العلاقة بين القيمتين (المودة والرحمة) –كما سبق– فهي علاقة سباعية تتمثل في: (**الاستيفاء، الجمع، المعاوضة، التبادل، الاشتراك، الاختلاف، الاحتمال**)؛ مما أكد لي أن قيمتي المودة والرحمة في الآية ظلتا مفتوحتان على جميع طبائع العلاقة الزوجية؛ مما يدل على رحابة ويسر ديننا الإسلامي الحنيف، ومدى فطانة العلماء واجتهاداتهم المبذولة من جهة، واختلافاتهم المتنوعة لا المتضادة لتقريب مدلولات القرآن الكريم من جهة أخرى.

ثم خلصت إلى أنه لإحقاق السكينة والمودة والرحمة بين الزوجين؛ لا بد من أمرين اثنين:

1_ **التفاعل القِيَمي**: ومعناه أنه لإحقاق قيمة السكينة؛ لا بد من السعي أولا إلى إحقاق قيمة المودة والرحمة بين الزوجين، إذ لا يمكن إحقاق كل من قيمة السكينة وقيمة المودة والرحمة، إلا بتفاعل منظومة القيم كلها فيما بينها، وذلك لبديهية تشابك القيم وخدمة بعضها لبعض، فلإحقاق المودة مثلا؛ لا بد من قيمة الصدق والتضحية والإيثار والإخلاص والبذل والعطاء والخدمة المتبادلة،

والتنازل المضبوط، والغيرة المحمودة، وما إلى ذلك. وأما قيمة الرحمة فستأتي تباعا لقيمة المودة وقيمها لا محالة! وهكذا وجدت مدى تشابك القيم بعضها ببعض.

2_ **الاسترشاد المحكم**: وهو الاهتداء بالوحيين الطاهرين، والاحتكام إليهما والحكم بهما، ودراسة مقالات وكتب المجال الأسري في ضلال الشريعة الإسلامية، وعلمي النفس والاجتماع، ومحادثة الأزواج الناجحين، للاستفادة من تجاربهم، والأزواج غير الناجحين لاجتناب مزالقهم، وكذا استشارة المتخصصين سيما مراكز الاستشارات الأسرية، كما وجب على كل إنسان مقبل على الزواج أن يستفيد من دورات تكوينية للتأهل نفسيا وفكريا ومجتمعيا...، لتأسيس وتنمية الثقافة الزوجية سيما في المجال الديني في الجانب العقدي والتعبدي والعملي والأخلاقي، وأنه كلما كان الزوج –رجلا أو امرأة– كثير الانفتاح على الثقافة الزوجية عموما، كلما احتمل وقوع الشرخ فيها والعكس تماما. لذلك كان من الواجب على الزوجين معا، الحرص كل الحرص على ترجمة المودة والرحمة إلى سلوك معين: (قولي أو فعلي أو عاطفي) وذلك لإحقاق التنعم بقيمة السكينة من جهة، وإدراك الزوجين معا؛ أن الحد الأقصى من العشرة بالمعروف؛ هو المودة والرحمة، وحدُّها الأدنى: الحرص على إعطاء الحقوق، والقيام بالواجبات، وأنه في حالة الإخلال بهذه الواجبات أو بعضها من الزوجين معا أو من أحدهما، عندئذ؛ وجب اعتقاد أمرين اثنين: أولهما: أن القوانين بين الزوجين ليست وحيا منزلا، وبالتالي؛ فهي للتذكير عند الإخلال بها، وليست للالتزام المطلق. فالميثاق الغليظ أسمى من أن تؤطره قوانين رقيقة. ثانيهما: التسليم بثبوت النقص في حق الإنسان؛ لحتمية النسيان والخطأ والإكراه.

الهوامش:

1 _ الحاكم، **المستدرك على الصحيحين**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2: 1422هـ /2002م، كتاب النكاح، رقم الحديث: 2632

2 _ مسلم، **المسند الصحيح**، دار طيبة، الرياض، ط1: 1427هـ /2006م، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، رقم الحديث: 1467، ص672.

ابن فارس أحمد، **مقاييس اللغة: تحقيق عبد السلام** محمد هارون، دار الفكر، ط: 1399هـ، 1979م، ج6، ص75. 3 _

4 _ الجوزية ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، تحقيق ناصر بن سليمان السعودي، علي بن عبدالرحمان القرعاوي، وآخرون، دار الصميعي للنشر والتوزيع، السعودية، ط1: 1432هـ-2011م، ج2، ص233.

5 _ المهدي حسين بن محمد، **صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال**، وزارة الثقافة، دار الكتاب، رقم إيداع: 449، ط: 2009م، ج1، ص 446.

6 _ عرفات صلاح بن محمد، الشنقيطي محمد بن عبدالله، عبد الحميد خالد بن فوزي، **اليسير في اختصار تفسير ابن كثير**، دار الهداة للنشر، جدة، ط1: 1426م، ج21.

7 _ القرطبي محمد، **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2: 1384هـ/ 1964م، ج 14، ص18.

8 _ ابن عادل عمر، **اللباب في علوم الكتاب**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 1419هـ/ 1998م، ج 15، ص295.

9 _ الجوزية ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** (مرجع سابق) ج2، ص233.

10 _ المهدي حسين بن محمد، **صيد الأفكار في الأدب والأخلاق والحكم والأمثال**، (مرجع سابق) ج1، ص444.

11 _ المرجع نفسه.

12 _ "**الفرق بين الحب والمودة**"، موقع مفيد الإلكتروني، تاريخ التصفح: 01 نونبر 2023م، الساعة 2:00 ليلا، رابط المقال: https://www.mfeeed.com/article-549.html

13 _ "**ما هي أعلى درجات الحب؟**" علي فاطمة، موقع مقال الإلكتروني، تاريخ التصفح: 1 نونبر 2023، الساعة: 11:54 ليلا، رابط المقال: https://mqaall.com/what-is-the-highest-degree-of-love/

14 _ ابن منظور، محمد بن مكرم جمال الدين الانصاري، **لسان العرب**، الحواشي لليازجي وجماعة من اللغويين، دار صادر – بيروت- لبنان، ط3: 1414هـ، حرف الباء، فصل الحاء المهملة، ج1، ص289.

15 _ المرجع نفسه، ص195.

16 _ الجوزية ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين** (مرجع سابق) ج3، ص11.

17 _ المرجع نفسه.

18_ ابن فارس أحمد القزويني الرازي، **معجم مقاييس اللغة**، أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، نشر عام 1979م، باب العين والشين وما يثلثهما، ج4، ص321.

19_ الجوهري الفارابي أبو نصر إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، ط4: 1987م، فصل العين، ج4، ص 1545.

20 _ الجوزية، ابن القيم، **مدارج السالكين**، (مرجع سابق) ج3، ص398.

21_ الرازي محمد بن أبي بكر، **مختار الصحاح**، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت- صيدا، ط5: 1420هـ/1999م، باب الراء، ص120 (بتصرف متوسط).

22_ الاصفهاني الراغب، **مفردات القرآن**، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، ط4: 1430هـ/ 2009م، ج1، ص347.

23 _ صليبا، جميل، **المعجم الفلسفي**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط: 1982، ج1، ص 611- 612، (بتصرف متوسط).

24 _ أنيس ابراهيم، وآخرون، **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية، جمهورية مصر العربية، مكتبة الشروق الدولية، ط4: 1425هـ/ 2004م، باب الراء، ص 319.

25 _ ابن منظور، **لسان العرب**، (مرجع سابق) ج9، فصل الراء، ص112.

26_ الرازي محمد بن أبي بكر، **مختار الصحاح**، (مرجع سابق)، باب الراء، ص 96.

27 _ العسكري، أبو هلال، **الفروق اللغوية**، تحقيق محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط 1418هـ/1997م، ج1، ص246.

28 _ الرازي محمد بن أبي بكر، **مختار الصحاح**، (مرجع سابق)، ج10، ص179.

29 _ الأصفهاني الراغب، **مفردات القرآن**، المحقق صفوان عدنان داوودي، (مرجع سابق)، ص458- 459.

30 _ المرجع نفسه.

31 _ الجوزية ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، (مرجع سابق) ج1، ص 514.

32 _ الإحسان المجددي البركتي، محمد عميم، **التعريفات الفقهية**، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ط1: 1424هـ/ 2003م، ص127.

33 _ ابن عادل عمر، **اللباب في علوم الكتاب**، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1: 1419هـ/ 1998م، ج 15، ص 295.

34 _ الطبري ابن جرير، **تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك**، دار التراث، بيروت، ط2: 1387هـ.، ج 14، ص295.

35 _ الرازي فخر الدين، **مفاتيح الغيب**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، بيروت، ط1: 1401هـ/1981م، ج1، ص91.

36 _ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، ط2: 1420هـ/ 1999م، ج6، ص309.

37 _ ابن عاشور محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس، ط1: 1984م، ج 14، ص217 / ج 21 ص72.

38 _ الرازي فخر الدين، **مفاتيح الغيب**، (مرجع سابق) ج 25، ص91.

39 _ ابن كثير **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، (مرجع سابق) ج6، ص309.

40_القرطبي محمد، **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2: 1384هـ / 1964م، ج 14، ص17.

41 ـ الرازي فخر الدين، **مفاتيح الغيب**، (مرجع سابق) ج14 ص110.

42 ـ عرفات صلاح بن محمد، وآخرون، اليسير في اختصار تفسير ابن كثير، دار الهداة للنشر، جدة، ط1: 1426م، ج21، ص390.

43 ـ ابن عادل عمر، **اللباب في علوم الكتاب**، (مرجع سابق) ج 15، ص295.

44 ـ القرطبي محمد، **الجامع لأحكام القرآن**، (نفس المرجع) ج 14، ص18.

45 ـ طنطاوي محمد سيد، **التفسير الوسيط**، دار النهضة، مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ج15، ط: 1997م، ج11، ص76.

46ـ السعدي عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في كلام المنان**، مكتبة دار السلام للنشر والتوزيع- الرياض، 1422هـ/ 2002م، ط1، ص639.

47ـ ابن عاشور محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، (مرجع سابق) ج11، ص57.

48ـ المرجع نفسه، ج 21، ص71.

49ـ مجموعة من المؤلفين، **التفسير الميسر**، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف السعودية ط2: 1430هـ/2009م، ج1، ص106.

50 ـ ابن عثيمين، موقع أهل الحديث والأثر الإلكتروني، تاريخ التصفح والاستماع: 1 نونبر 2022، الساعة 10: 10 صباحا، الرابط: https://www.alathar.net/home/esound/index.php?op=tadevi&id=897

51 - البعلي بدر الدين أبو عبد الله، محمد بن علي الحنبلي، **مختصر الفتاوى المصرية لابن تيمية**، أشرف على تصحيحه: عبد المجيد سليم، وشارك في تحقيقه وقام على طباعته: محمد حامد الفقي، بمطبعته السنة المحمدية، نشر بالشاملة: عام 1433هـ، كتاب عشرة النساء والخلع، ص444.

52 ـ مسلم، **المسند الصحيح**، (مرجع سابق) كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب فضائل خديجة ام المؤمنين، ص 1138، رقم الحديث: 2435.

53 ـ وافي علي عبد الواحد، **المرأة في الإسلام**، دار نهضة مصر للنشر والطبع، ط2، (بدون تاريخ الطبع) مركز المرأة للدراسات والاستشارات، ص82.

54ـ المغامسي، أبو هاشم صالح بن عوّاد بن صالح، **سلسلة محاسن التأويل**، (الكتاب عبارة عن دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية: http://www.islamweb.**Net** وهو مرقم آليا، ورقم الجزء هو رقم الدرس، عدد الدروس/الأجزاء: 73) ج60، ص14.

55 ـ الأنطاكي، داود بن عمر، المعروف بالأكمه، **تزيين الأسواق في أخبار العشاق**، (بدون بيانات) ص58.